

الوزير الفاطمي رضوان بن ولخشي (531-533هـ/1136-1138م)

عبدالمعز عصري بني عيسى*

ملخص

تبحث الدراسة في شخصية إسلامية، ظهرت إلى حيز الوجود في أواخر العصر الفاطمي، في وقت سيطر فيه الوزراء على مقاليد الحكم، واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء الفاطميين، وبظهور صاحبها على مسرح الأحداث، تسجل أول حالة يصل فيها أحد أبناء طائفة السنة إلى كرسي الوزارة الفاطمية، يدعى رضوان بن ولخشي. تتبعت الدراسة مولده ونشأته، ثم تدرجه في المناصب الإدارية وصولاً إلى الوزارة، فبينت الدراسة الظروف التي ساعدته في الوصول إلى منصب الوزارة، وناقشت كذلك سياسته الداخلية التي اتبعتها مع المسلمين من جهة، وأهل الذمة والأرمن من جهة أخرى. وذكرت الدراسة سلسلة الإجراءات الإدارية والمالية التي شرعها ابن ولخشي، وكذلك الإنجازات التي تحققت في عهده على الصعيد العلمي والعماري. وكشفت الدراسة عن الأسباب التي أدت إلى الخلاف بين الوزير رضوان والخليفة الحافظ لدين الله، الذي نجم عنه خلق حالة من التوتر الشديد، صاحبه اتساع الفجوة بين الطرفين، الأمر الذي دفع الخليفة الفاطمي إلى الإطاحة بالوزير رضوان في سنة 533هـ/1137م، واعتقاله في القصر مدة تجاوزت الثماني سنوات، ليتمكن بعدها من قتله في سنة 542هـ/1147م.

الكلمات الدالة: رضوان، الحافظ لدين الله، الدولة الفاطمية، بهرام، ديوان.

المقدمة

(ابن القلانسي، 1983، ص384؛ سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص254؛ ابن ميسر، 1981، ص119؛ المقريزي، 1996، ج3، ص149)، فأحكم الحسن قبضته على البلاد، وتخلص من رجالات أبيه، بعد أن ألقى القبض عليهم، وقام بالحجر على أبيه، واستبد بالسلطة. (سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص254؛ الأزدي، 1999، ج1، ص242 - 243؛ ابن المقفع، 2006، ج3، ص1276 - 1278)، ولم يجد الحافظ وسيلة من أجل إيقاف الثورة، إلا من خلال تسليم ابنه الحسن ولاية العهد سنة (528هـ / 1134م)، فتمكن من دولة أبيه، وتصرف في شؤونها وفق رأيه وإمضاءه، بعد أن اشتد أمره واستقل بحكم البلاد المصرية في سنة 529هـ/1135م (ابن ميسر، 1981، ص121؛ الأزدي، 1999، ج1، ص242؛ أبو الفداء، 1905، ج3، ص9؛ المقريزي، 1996، ج3، ص150)، وذلك بعد أن عهد إليه الحافظ بالخلافة، فلم يزد الحسن إلا شراً وتعدياً (دفترتي، 2012، ص431؛ دائرة المعارف، 1933، مج7، ص258)، الأمر الذي دفع الحافظ إلى الاستجداء بالطائفة الريحانية التي لجأت إلى بلاد الصعيد بعد حربها مع الحسن، فجاء منها أعداد كبيرة، والتقت بأجناد الحسن، بعد أن انضم إلى جانبهم العبيد والسودان، وجرت معركة بين الطرفين في منطقة تدعى بكوم الدرب جنوب القاهرة، وقتل حسن من السودان، والطائفة الريحانية أعداد كثيرة

ترزعزت الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الحافظ لدين الله، أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد (524 - 544هـ / 1131 / 1149م)، حيث نشبت الفتنة بين أبنائه سنة 528هـ / 1134م، وذلك بعد أن جعل ابنه سليمان (ت528هـ / 1134م) في ولاية العهد، وأقامه مقام الوزير، إذ لم يكن الحافظ لينق بالوزراء، الذين استبدوا بالحكم دون الخلفاء الفاطميين، فأصبحوا الحكام الحقيقيين للبلاد المصرية (ابن ميسر، 1981، ص119، 121؛ الاسكندري، 1920، ص199؛ دائرة المعارف، 1933، مج7، ص257). وبعد وفاة سليمان بشهرين عين الحافظ لدين الله ابنه أبو تراب حيدرة في ولاية العهد، الأمر الذي أغضب ابنه الآخر حسن، صاحب الجاه والمال، فاشتعلت نار الفتنة بين الأخوين سنة 528هـ / 1134م، وانقسمت الأجناد إلى فرقتين إحداهما سميت بالطائفة الجيوشية، تؤيد الأمير حسن (دائرة المعارف، 1933، مج7، ص259)، والأخرى تؤيد الأمير أبو تراب حيدرة، وحملت اسم الطائفة الريحانية، ونتج عن الفتنة انتصار الطائفة الجيوشية

* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2016/5/17، وتاريخ قبوله 2016/7/25.

الحافظ قد أمر بخنق ابنه فمات، وسيّر من أخبر المحاصرين بموته. (ابن ميسر، 1981، ص121؛ الأزدي، 1999، ج1، ص243).

وقد ذكر أن الحسن عندما دخل في الحرب مع أخيه، أرسل إلى بهرام يستدعيه نصرته له على أخيه حيدرة (ابن ميسر، 1981، ص122؛ دفتري، 2012، ص431)، لا سيما أن بهرام يملك ألفي فارس من الأرمن، ويوصله مدينة القاهرة، وجد الحسن مقتولاً، فالتفت حوله طائفة من الأجناد الفاطمية، وكان أكثرهم من الثائرين السودان والطائفة الريحانية، وألّزمت الخليفة بتوليته الوزارة، فأجابهم الحافظ لدين الله درءاً للفتن ومنعاً للفضى، وخلع على بهرام الوزارة في يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الآخرة سنة (529هـ / 1135م)، وأطلق عليه لقب "سيف الإسلام تاج الخلافة"، ليصبح بذلك أول من تولّى وزارة التفويض من النصارى للفاطميين. (ابن الطوير، 1992، ص38 - 42؛ سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص399؛ الأزدي، 1999، ج1، ص244؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص155).

يقول المقرئزي في مسألة وصول بهرام إلى الوزارة: "أن بهرام بعد أن علم بأن الأجناد قد انفضت عن الأمير حسن بن الحافظ، جمع أعداداً من العربان وأنصاره الأرمن في الغربية، واتجه طالباً القاهرة، وقيل كان ذلك بالاتفاق مع الحافظ، وعندما وصلها في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة 529هـ/1135م، تسلّم الوزارة في الدولة الفاطمية". (المقرئزي، 1996، ج3، ص155-156)

إلا أن بهرام مارس سياسة دينية وإدارية، ومن ورائه نحو ثلاثين ألف إنسان أرمني، أسكنهم بهرام في البلاد المصرية، فاستطالوا على المسلمين وألحقوا بهم الأذى والظلم بجميع أنواعه (ابن ميسر، 1981، ص124؛ دفتري، 2012، ص431)، مما دفعهم للاستجداد بوالي الغربية رضوان بن ولخشي الذي قدم إلى القاهرة، فدخلها وهرب منها بهرام إلى الصعيد، الأمر الذي أجبر الحافظ لدين الله على تعيين رضوان وزيراً جديداً في عام 531هـ/1136م. (الأزدي، 1999، ج1، ص245-246؛ الروحي، 2009، ص339-340).

رضوان بن ولخشي (المولد والنشأة):

ولد رضوان بن ولخشي في ليلة عيد غدير خمّ (وهو من الأعياد التي يحتفل بها الفاطميون في القاهرة بحضور الكثير من العامة والمغاربية، ويدعون فيه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عهد فيه إلى علي بن أبي طالب واستخلفه. للمزيد أنظر: المقرئزي، 1998، ج2، ص117)، في 18 ذي الحجة

(سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص454؛ الأزدي، 1999، ج1، ص243؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص150)، وعندما وجد الحافظ نفسه في حرج من أمره بعد انتصار قوات ابنه الحسن وخاف على نفسه، احتال على ابنه حيث أخبره بالحذر من أمراء الدولة الذين يحاولون الفتك به بأنباعه، عندها ثارت ثائرتهم، وأمر بجمعهم ومن ثم قتلهم جميعاً كما ذكر سابقاً. (المقرئزي، 1996، ج3، ص151؛ دفتري، 2012، ص431).

ويذكر أن الأمراء الذين مالوا إلى جانبه في الحرب مع أخيه حيدرة وأوصلوه إلى الحكم، خافوا من انتهاء أمره بوجود أبيه في الخلافة، فأخبروا الحافظ لين الله بمكتاباتهم لإبنه حسن، فما كان من الحافظ إلا أن أرسلها إلى ابنه، وقال له: "لا تعتقد أن معك أحداً." (ابن ميسر، 1981، ص121)

إن المتعمّن في مسألة التخلص من الأمراء أركان الدولة الفاطمية، ليجد أن الخليفة الحافظ لدين الله هو من تسبّب في ذلك، وجعل الدولة تعاني بقتل أصحاب الرأي والخبرة، وذلك حتى لا ينكشف أمره أمام ابنه، وبالتالي يعلم بحقيقة المؤامرة التي دبها والده ضده، وبعد قيام الحسن بقتل الأمراء خافته الأجناد ونفرت النفوس منه لا سيما بعد أن انتشر ظلمه للناس، الأمر الذي دفع عدد من الأجناد إلى الهروب نحو ولاية الغربية، والاتصال بواليتها بهرام الأرمني (ت535هـ / 1140م) الذي رافقهم إلى مدينة القاهرة، فدخلها وأعاد الحافظ لدين الله إلى الحكم، بعد هروب ابنه الحسن، وكان ذلك في سنة 529هـ / 1135م (الأزدي، 1999، ج1، ص243؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص151؛ ابن المقفع، 2006، ج3، ص1278 - 1281)، وتم بعد ذلك إلقاء القبض على الأمير حسن ابن الحافظ، وإحضاره بين يدي والده الخليفة (ابن الطوير، 199، ص38-40؛ ابن خلدون، 1999، مج7، ص152-153)، الذي دفع إليه بخاتم مسموم، وأمره بمصّه (ابن ميسر، 1981، ص122؛ دفتري، 2012، ص431)، خوفاً عليه من الأجناد والسودان التي طوقت القصر، وعددها نحو عشرة آلاف فارس وراجل، وقال الحافظ مخاطباً ابنه الحسن: "وكأنني أرى وجه صلاح حالي وحالك أن تمصّ هذا الخاتم فتموت في سبيل الله بلا عقوبة منهم، ثم رمى إليه بخاتم مسموم، يعدّوه الملوك عندهم لمثل هذه الأمور الغالبة عليهم، فيرون الموت لهم أخير من الحياة في يد أعدائهم وتحكمهم فيهم". (الأزدي، 1999، ج1، ص243؛ الروحي، 2009، ص339؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص153) فتناول الحسن الخاتم، وقام بمصّه، فمات من وقته. (ابن القلانسي، 1983، ص242؛ الدوادري، 1961، ج6، ص515؛ المقرئزي، 1992، ج3، ص418). وقيل أن

وعندما تولى ابن الأفضل الوزارة سنة (524هـ / 1129 م)، قام بتصريف شؤون الدولة الفاطمية، ورفض الدعوة للحافظ لدين الله وأهل بيته، وأظهر المذهب الأممي، ودعى للمهدي المنتظر (سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص354؛ ابن ميسر، 1981، ص113؛ دفتري، 2012، ص429؛ دائرة المعارف، 1933، مج7، ص258)، على المنابر، وأمر بقطع عبارته حيّاً على خير العمل من الأذان، ودعا لنفسه بصيغة: "السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، والمحامي عن الدين، وناشر جناح العدل، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي" (ت 514هـ / 1121م)، (سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص399؛ ابن ميسر، 1981، ص116؛ المقرئ، 1996، ج3، ص140، 143؛ السيوطي، 1967، ج1، ص608).

عهد ابن الأفضل إلى رضوان بن ولخشي بحبس الخليفة الحافظ الدين الله، ثم أخذ رضوان يرتقي المناصب الكبرى في الدولة الفاطمية بعد أن تخلص الخليفة من الوزير ابن الأفضل سنة (526هـ / 1131م)، (ابن ميسر، 1981، ص115) وتمسك بابن ولخشي لشدة إعجابه بشجاعته وجرأته، ونعته بفحل الأمراء، فتقلد رضوان في بداية مشواره السياسي والإداري، منصب صاحب الباب سنة (529هـ / 1134م)، ووصل إلى منصب الولاية في عهد الوزير بهرام الأرمني، حتى انتهى به المطاف وزيراً للدولة الفاطمية في البلاد المصرية (الأزدي، 1999، ج1، ص242؛ ابن حماد، 1981، ص109؛ المقرئ، 1996، ج3، ص137 - 140، 145، 157).

الوصول إلى السلطة:

أ- المناصب التي تقلدها ابن ولخشي قبيل الوصول إلى

الوزارة:

تقلد رضوان عدداً من المناصب الإدارية في الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الحافظ لدين الله، ووزيره بهرام الأرمني، الذي تولى المنصب للفاطميين سنة (529هـ / 1134م)، إذ كان يخشى جانب رضوان، فأبعده عن القصر، حيث كان يشغل منصب صاحب الباب، وهو من أعظم وظائف أرباب السيوف، وبنعت صاحبها بالمعظم (سلطان، 1985، ص43)، ويذكر ابن ميسر أن رضوان: "كان يلي حجة باب ابن الخليفة الحافظ" (ابن ميسر، 1981، ص124)، وقال فيه ابن خلدون أيضاً: "وكان رضوان الشجاع

سنة 489هـ/1069م (ابن ميسر، 1981، ص138)، وكان أصله من صبيان الرُكَّاب الذين يخدمون الخليفة في الركوب في المواسم (ابن الطوير، 1992، ص85)، واتصف رضوان بالشجاعة، حيث يصفه المقرئ قائلاً: "كان رضوان سنياً حسن الاعتقاد، شجاعاً، مقدماً، قوي القلب، شديد البأس" (المقرئ، 1996، ج3، ص184)، وذكره ابن ميسر قائلاً: "وكان رضوان سنياً حسن الاعتقاد، شجاعاً، شديد البأس، ثابت الجنان". (ابن ميسر، 1981، ص138)

بدأ رضوان يتسلق المناصب في الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة الأمر بأحكام الله (495 - 524هـ / 1101 - 1138م)، وأصبح أحد الأمراء المميزين في عهده، ومن مقدمي الأجناد في جيشه (المقرئ، 1996، ج3، ص137، 184؛ سيد، 2007، ص264؛ المناوي، 1970، ص279). وعندما تسلم الحافظ لدين الله عرش الخلافة الفاطمية بعد مقتل ابن عمه الأمر بأحكام الله سنة 524هـ/1138م (ابن ميسر، 1981، ص110؛ دائرة المعارف، 1933، مج7، ص258)، لمع نجم رضوان بن ولخشي، واشتد عوده، بعد أن جمع حوله خمسة آلاف من الفرسان والمشاة، وبذلك أصبح كبير الأجناد في الدولة الفاطمية (ابن خلدون، 1999، مج7، ص150-151؛ الفلقتشندي، 1964، ج2، ص27، 250؛ المقرئ، 1996، ج3، ص137)، وقد مارس رضوان سياسة الضغط على الخليفة الحافظ، وفرض عليه تولية أبو علي أحمد بن الأفضل (ت 526هـ / 1131م) في منصب الوزارة عوضاً عن جوامرد والذي يدعى بهزار الملوك (ت 524هـ / 1129م)، حيث تم خلعهم من الوزارة، وقتله في نهاية الأمر. (المقرئ، 1996، ج3، ص137-139؛ السيوطي، 1967، ج1، ص608)، ويذكر ابن خلدون أن أمر الخلافة، وإسنادها إلى الحافظ لدين الله كان بترتيب من برغش العادل وجوامرد (هزار الملوك). وقالوا: "إن الأمر بأحكام الله أوصى بأن فلانة حامل، فدلته الرؤيا بأنها تلد ذكراً فهو الخليفة بعدي، وكفالتة لعبد المجيد، فأقاموه كافلاً ولقبوه الحافظ لدين الله، وأن يكون هزار الملوك وزيراً" (ابن خلدون، 1999، مج7، ص150؛ للمزيد أنظر: دفتري، 2012، ص428، 430؛ دائرة المعارف، 1933، مج7، ص258). وقد يكون اختيار عبد المجيد وصي على العرش بعد وفاة ابن عمه الحاكم بأمر الله، كونه أكبر أفراد الأسرة الفاطمية سناً (دفتري، 2012، ص428)، فاستغل هزار الملوك منصبه في تجريد سلطة الوصي على العرش، حيث لم يكن الحافظ لدين الله سوى حاكماً اسمياً فقط، بينما تسلم هو زمام السلطة الفعلية في الدولة الفاطمية إلى جانب برغش والحاجب يانس الأرمني. (دفتري، 2012، ص428)

والفكر السديد، فاختلفت أركان الدولة لقلّة الرجال، وعدم الكفاءة. (؛ أبو الفداء، 1905، ج3، ص9؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص149) أضف إلى ذلك كره ابن ولخشي لسيطرة الأرمن، وتحكمهم بشؤون الدولة تحت قيادة زعيمهم بهرام، فامتعض رضوان من ذلك، وانطلق بالأجناد من مدينة سخا، قسبة كورة الغربية (الحموي، 1977، مج3، ص196)، باتجاه القاهرة، وذلك بعد أن خطب في الناس خطبة حرضهم فيها على الجهاد في سبيل الله، ودعاهم للاجتماع حوله ونصرته ودعمه للقضاء على بهرام وأنصاره من الأرمن، فتمكن من حشد نحو 30.000 ألف مقاتل جمعهم من العريان (ابن الطوير، 1992، ص45؛ ابن ميسر، 1981، ص124؛ الأزدي، 1999، ج1، ص244؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص159). وقد نجح رضوان في استمالة الأهالي إلى جانبه، بعد أن أظهر لهم الكتب التي وردت إليه من الخليفة الفاطمي، ومضمونها الطلب من رضوان القدوم إلى مصر، ونصرته على الوزير بهرام الأرمني وأجناده الأرمنية، ويذكر ابن القلانسي أن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله قد أزعجه تفرد الوزير بهرام في شؤون الدولة، وقيامه هو وأتباعه من الأجناد بفرض حصار على الخليفة داخل القصر، أضف إلى ذلك تعرض أتباعه من الأرمن للمسلمين بالإهانة وعدم الاحترام، وتناولهم في الإساءة بدعم من الوزير بهرام. (ابن القلانسي، 1983، ص412؛ أبو الفداء، 1905، ج3، ص11)، وهذا ما أكده ابن ولخشي في خطبته أمام أهالي الغربية، الذين استجابوا لندائه، ودخلوا تحت لوائه، ويمكن القول أن الأسباب وراء انضمام أهالي الغربية إلى الثائرين في وجه الحكام الفاطميين تعود إلى بعد ولاية الغربية عن القاهرة، وتوطين أعداد كبيرة من العريان في نواحيها، لاسيما وأنهم أقوام معروف عنهم التمرد وعدم الخضوع والانصياع للأنظمة الحاكمة، كونهم متفرقوا الأهواء الدينية والسياسية، حيث لا يجمع بينهم وازع ديني واحد ولا وجهة سياسية معينة (المقرئزي، دت، ص91)، فكان ذلك من الأسباب التي دفعت رضوان إلى الاستتجاد بهم ضد الوزير بهرام، بعد أن أثار الأخير بسياسته سخط الكثير من العامة وعلى رأسهم العوام في القاهرة، الذين لم يتوانوا في الإطاحة بالوزير وأخيه الباساك في قوص، وأنصارهم، والقيام بنهب ممتلكاتهم، وتخريب دورهم. (ابن الطوير، 1992، ص45-46؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص156، 160-161)

وقد ذكر أيضاً أن الذي أرسل الكتب إلى رضوان كانوا من الأمراء في حاشية الخليفة الفاطمي، حيث اتفقوا على مراسلة رضوان بعد أن تقلت وطأة الوزير بهرام وأخيه الباساك على الناس، وكان وصول الكتب إلى الغربية في شهر صفر من

الكتاب من أولياء الدولة " (ابن خلدون، 1999، مج7، ص153)، لاسيما أنه يتصف بالشجاعة، ويكثر من الاستهزاء بالوزير بهرام، حيث قيل له يوماً: "إنه يهزأ بك في قولك وفعلك". (ابن الطوير، 1992، ص44؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص157؛ ماجد، 1985، ص84)، فوجه بهرام نحو عسقلان والياً، خوفاً من الوثوب عليه والإطاحة به (سلام، 1982، ص55)، وقد تولى أمرها مدة سبعة شهور، ثم أصدر الأوامر بنقل رضوان والياً على الغربية، بعد أن كان في ولاية عسقلان. (ابن ميسر، 1981، ص124؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص158) وتعود أسباب ذلك إلى قيام رضوان بالتشدد في معاملة الأرمن، ومنعهم من مغادرة عسقلان باتجاه مصر. (ابن الطوير، 1992، ص45؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص158). يقول ابن ميسر في هذا الشأن: "فوصل رضوان إلى عسقلان، وأقام بها فوجد جماعة من الأرمن يتواصلون في البحر يريدون مصر، فناكدهم وردّ بعضهم، فعظم ذلك على بهرام فصرفه عن ولاية عسقلان " (ابن ميسر، 1981، ص124)، وإن بدأ للعيان أن إرساله إلى عسقلان والياً، كان لحفظها من الإفرتج قبل سقوطها في أيديهم. (سلام، 1982، ص55) ومن الأسباب أيضاً وراء تعيين ابن ولخشي في ولاية الغربية، ذلك الدور الذي لعبه في القبض على الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ، بعد أن سلب أبيه الحكم، وعندما ألقى القبض عليه، أطلق الخليفة الحافظ لقب فحل الأمراء على ابن ولخشي. (ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1287)

واستمر رضوان بن ولخشي والياً على الغربية حتى الثالث عشر من شهر جمادى الأولى سنة (530هـ / 1135م)، أي أن فترة ولايته الثانية كانت أقل من ثلاثة أشهر، ليتولى بعد ذلك منصب الوزارة في الدولة الفاطمية. (ابن الطوير، 1992، ص45؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص158)

ب- الظروف التي ساعدت رضوان في الوصول إلى منصب الوزارة:

لعب الخليفة الحافظ لدين الله دوراً في إثارة الفتنة بين أبنائه، وذلك بعد إقدامه على جعل منصب الوزارة في شخص ابنه سليمان (ت528هـ / 1133م)، إلى جانب ولاية العهد، حيث كان الخليفة يطمح للتخلص من "مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه"، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، بعد وفاة سليمان، ونتج عنها الصراع بين الأبناء، الذين دخلوا في سلسلة من الحروب الدامية (سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص254؛ ابن ميسر، 1981، ص119؛ ابن خلدون، 1999، مج7، ص152)، الأمر الذي انعكس سلباً على إدارة الدولة الفاطمية، لاسيما بعد فقدان الكثير من الأمراء، وأصحاب الرأي

ابن الأثير، 2003، ج9، ص296 - 296؛ المقرئزي، 1992، ج2، ص514).

ويبدو مما سبق ذكره، أن بهرام الأرمني كان يفكر جيداً في إثارة أتباعه من الأرمن لأجل نصرته في الصراع مع ابن ولخشي قائد الأجناد الإسلامية السنية، مما هدد بتحويل الصراع الذي بدأ بصفة عسكرية وسياسية إلى صراع بيديني، ولو نجح بهرام في مسعاه، لما انتهى هذا الصراع، ولتحولت أراضي البلاد المصرية إلى ساحات للفتن الطائفية والمذهبية، ولكن بهرام وأتباعه لم يجدوا سبيل المساعدة من النوبيين، لاسيما وأن العلاقات بين النوبيين والفاطميين، كانت ذات طبيعة ودية للغاية، وقائمة على تبادل السفارات والهدايا، بسب حرص النوبيين على سلامة بلادهم من الفاطميين من جهة، وحفاظاً على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية من جهة أخرى، بالإضافة إلى حرص الفاطميين على استخدام نفوذ البطريك القبطي، ومكانته لدى ملك النوبة لينظر بعين العطف والاهتمام بالرعايا المسلمين. (ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، 1274 - 1275) كما أن ضعف الأسرة الحاكمة في بلاد النوبة، وعدم قدرتها على مناوأة الفاطميين، أو الخروج عن طاعتهم (ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1274)، كان سبباً وراء فشل بهرام في استئثار أبناء ملته، وجمع الانتصار من بلاد النوبة من أجل شن الحرب على الوزير الفاطمي ابن ولخشي وأجناده.

ويعد خروج بهرام وأبنائه من القاهرة، دخل رعا العامة من الغوغائيين (المعجم الوسيط، ص354)، والأوياش دار الوزارة، وقاموا بنهبها، ليسجل بذلك أول نهب يقع في دار الوزارة خلال العصر الفاطمي (ابن الطوير، 1992، ص46؛ النويري، 2004، ج28، ص197؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص160)، ثم اتجهوا نحو الحسينية، فنهبوا دور الأرمن وكنائسهم في مناطق الزهري والبساتين، وهي من الكنائس التي حظيت بالاهتمام في إعادة بنائها وتجديد معالمها (ابن ميسر، 1981، ص125؛ أبو المكارم، 1984، ج2، ص4-6)، وامتدت أيديهم كذلك إلى مقبرة الأرمن، وقاموا بنهب قبر البطريك شقيق الوزير بهرام. (ابن الطوير، 1992، ص46؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص161).

أدت هذه الأوضاع إلى خلق حالة من عدم الانضباط والاستقرار الأمني في شوارع وأحياء القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية، ووصلت الأخبار إلى صعيد مصر بهزيمة الوزير وأتباعه، وانتصار رضوان وأجناده، فقام أهل قوص بالثورة على الباساك، الوالي وقتله، والعمل على نهب أمواله وممتلكاته، وحينما وصل بهرام قوص على رأس ألفي فارس من الأرمن

سنة 531هـ / 1136م. (ابن ميسر، 1981، ص124-125؛ النويري، 2004، ج28، ص197)

وتجدر الإشارة إلى أن استفحال سلطة بهرام وأهل ملته في إدارة شؤون الدولة دون الخليفة الحافظ الدين الله، واستثنائه المسلمين من المناصب الإدارية الكبرى في الدولة، كانت سبباً وراء انضمام أبناء المسلمين إلى جانب رضوان، لا سيما أنهم قد استنهضوه عندما جاءوا إليه وهو في ولاية الغربية، وقالوا له: "الخليفة سمّاك فحل الأمراء، وما للمسلمين من ينقدهم من إهانة الأرمن غيرك، فإن قوبوا أكثر من هذا تنصر كثير من المسلمين، واستنهضوه، فنهض معهم، وحشد العربان ومقطعين البلاد، ونادى: يا مجاهدين في الكفار". (الأزدي، 1999، ج1، ص242؛ ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1289 - 1290) أضف إلى ذلك عدم تقيد الخليفة الفاطمي بالمبدأ العام في تعيين الأمراء من الأرمن أو أهل الذمة فقط في منصب وزارة التنفيذ، وعدم جواز تعيينهم في وزارة التفويض، وذلك عندما عين بهرام الأرمني وزيراً للتفويض في الفترة ما بين عامي (529-531هـ / 1134 - 1137م) (ماجد، 1985، ج1، ص92)، وتابع رضوان بالحشود التي جمعها، مسيره نحو القاهرة، فدخلها وأمر أجناده برفع المصاحف فوق الرماح، حيث أن الأمراء كانوا قد أوصوه بعمل ذلك، وقالوا له: "إذا وقع الوجه في الوجه، إرفع المصاحف على الرماح، فما يسعنا في دين الإسلام إلا نصرته المسلمين" (ابن الطوير، 1992، ص45)، وعندما رأى بهرام كثرة الأجناد حول رضوان، رافعين المصاحف على الرماح، وتعرض أجناده إلى الهزيمة، قرر الهروب والرحيل عن القاهرة، بعد الاستماع إلى مشورة الخليفة الحافظ لدين الله، حيث يذكر ابن الطوير أن بهرام قد أرسل إلى الخليفة يعلمه بأمر رضوان، وخبر انضمام أجناده إلى جانب أجناد الغربية، فخاف الخليفة عاقبة ذلك من الأمراء وغيرهم (ابن الطوير، 1992، ص45؛ ابن ميسر، 1981، ص125).

اتجه بهرام نحو الصعيد في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 531هـ / 1136م، حيث أشار عليه الخليفة بالتوجه إلى مدينة قوص، إحدى أكبر المدن في صعيد مصر (الحموي، 1977، مج4، ص413)، وقال له: "فإن بها آخاك الباساك تقيم عنده، إلى حين يدبر أمراً، فإن الإسلام يغلبني عليك". (ابن الطوير، 1992، ص45؛ الروحي، 1981، ص339) فاقتنع بهرام برأي الخليفة، وعاد إلى القاهرة، واصطحب معه ما خفّ حملته، وتوجه طالباً قوص، للاجتماع بأخيه الوالي فيها، ومن ثم المضي مجتمعين على رأس العساكر نحو أسوان من أجل امتلاكها، والاتصال بأتباع ملته في بلاد النوبة وأنصار مذهبه (ابن الطوير، 1992، ص45؛

سنة وخمسة أشهر وثلاث أيام (ابن الأثير، 2003، ج9، ص297؛ ابن حماد، 1981، ص106؛ المتأوي 1970، ص279 - 280)، وبحصوله على الوزارة، يكون قد استحوذ على السلطات التي بيد الخليفة الفاطمي (ماجد، 1985، ص86)، لا سيما بعد حصوله على الخلة الفاطمية، ودخوله في مراسم تنصيبه كوزير للتفويض، حيث أصبح زيه يتفق وسلطاته الجديدة، إذا ارتدى طيلسان وهو نوع من الأوشحة التي توضع على الكتف (الخطيب، 1996، ص312)، وسمح له أيضاً بترك نؤابة ملقاة على ظهره، كدلالة على أنه رئيس أرباب السيوف، كما حمل إلى ابن ولخشي دواة محلاة بالذهب، والتي هي من علامات الخلافة أيضاً، وترمز إلى سلطاته الإدارية، ومكانته الخطيرة في الدولة. (المقريزي، 1998، ج2، ص232 - 233؛ ماجد، 1985، ص90)

سياسة رضوان الداخلية:

أولاً: مع المسلمين:

تطلع ابن ولخشي بعد وصوله إلى منصب الوزارة نحو الاهتمام: بأصحاب المعارف، وأرباب السيف. إذ أمر بالإحسان إليهم من خلال الزيادة في أرزاقهم ومرتباتهم المالية (ابن الطوير، 1992، ص49). وقد أجرى رضوان بعض التغييرات في بعض المناصب العليا في الدولة، حيث استخدم فيها المسلمين بدلاً من النصارى، وقام بتطهير أجهزة الدولة من العناصر غير الموالية، فأمر بإنهاء خدمات الأخرم بن أبي زكريا النصراني (ت بعد 542هـ/1149م)، المنعوت بصنيعة الخلافة من ديوان التحقيق، والذي يعد من أهم الدواوين، وأجلها كونه المسؤول عن محاسبة باقي الدواوين (ابن الطوير، 1992، ص79، هامش3؛ المقريزي، 1992، ج2، ص145)، وعين في ديوان المجلس أبو منصور محمد الأنصاري (ابن الطوير، 1992، ص50)، وتساهل ابن ولخشي مع الضمآن في أموال الدولة من المسلمين، إذ نجده قد عفا عن أحدهم، ويدعى هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، بعد أن وجده قد انكسر عليه المال في ضمانه. (ابن الطوير، 1992، ص51؛ ابن ميسر، 1981، ص129)

وقد شهدت سنة 532هـ / 1137م قيامه بعمل سلسلة من الإجراءات، دبر من خلالها الأمر أحسن تدبير وأحسن إلى المسلمين، وعطف على المحتاجين، وأمدهم بالمساعدات، ورفع من أجور ورواتب العاملين. (ابن ميسر، 1981، ص129-130؛ النوبيري، 2004، ج28، ص198)

وبالإجمال فإن السياسة التي اتبعها رضوان بن ولخشي خلال توليه منصب الوزارة في الدولة الفاطمية قد لاقت ارتياحاً

أقاربه وجنده، لم يجد أحداً يقدم له ولأتباعه الطعام، ورأى أخيه على تلك الحالة. (ابن الطوير، 1992، ص46؛ ابن ميسر، 1981، ص125)، قرر الانتقام لأخيه، حيث أقدم على قتل جماعة من أهلها، ثم أمر أجناده بنهب المدينة، وأراد أتباعه حرق المدينة، فمنعهم من ذلك، وقال: "أخي قد فات أمره، والبلد لمولانا وما يزيدنا هذا عنده إلا إدياراً". (ابن الطوير، 1992، ص46)، فتركها بهرام متجها نحو الجنوب، حيث مدينة أسوان، ثم عدل عن رأيه وتوجه إلى الأديرة البيض، غرب نهر النيل في صعيد مصر (الحموي، 1977، مج2، ص543) وذلك بعد أن تركه أتباعه من الأرمن، نتيجة فشله في دخول أسوان التي امتنعت عليه بكنز الدولة (ت556هـ / 1160م)، وأهلها (ابن القلانسي، 1983، ص412؛ ابن الأثير، 2003، ج9، ص297؛ ابن الطوير 1992، ص46؛ المقريزي، 1996، ج3، ص161).

ج- تولي رضوان منصب الوزارة:

بُعِد انتصار قوات رضوان، والتمكن من دخول عاصمة الخلافة الفاطمية، وقف رضوان فيما بين القصرين، واستأذن الخليفة، فأمره بالنزول في دار الوزارة، والتي تقع بجانب القصر الشرقي مقابل باب العيد (ابن ميسر، 1981، ص126؛ ابن خلدون، 1999، مج7، ص154؛ المقريزي، 1998، ج2، ص229)، وذلك بعد أن احتفل الخليفة بقدمه وزاد في تكريمه، وبعد يومين من تحقيق الانتصار على بهرام الأرمني وأجناده، أي في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة 531هـ / 1136م، أرسل الخليفة الحافظ لدين الله إلى ابن ولخشي "خلة الوزارة"، وأضفى عليه لقباً جديداً "السيد الأجل، الملك الأفضل"، ليكون بهذا اللقب أول وزير يحمل لقب "الملك"، ومثل هذه الألقاب الجديدة التي أصبح ينعت بها وزراء التفويض الفاطميين، تستعمل لأجل الدلالة على السلطات الواسعة التي استحوذ عليها الوزراء في الشؤون المدنية والحربية والقضائية والدينية، وها هي الألقاب جاءت لتدل على اختصاصاتهم الواسعة في جميع أمور الدولة. (ابن ميسر، 1981، ص126؛ ماجد، 1985، ج1، ص83) وبعد أن حصل رضوان على منصب الوزارة، استأذن الخليفة في إخراج الأموال، وتوزيعها على الأجناد التي رافقته من الغربية إلى القاهرة. (ابن الطوير، 1992، ص47؛ المقريزي، 1996، ج3، ص161؛ ابن حماد، 1981، ص106) وكان وصول ابن ولخشي إلى كرسي الوزارة في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 531هـ / 1136م، أي قبل يومين من حصوله على الخلة الخليفية الخاصة بالوزارة، واستمر في المنصب الوزاري حتى الرابع عشر من شهر شوال سنة 533هـ / 1138م، أي أن مدة وزارته كانت

هي في البواطن. (ابن الطوير، 1992، ص50) وفرض أيضاً على اليهود الجزية، وأخذ من أحبارهم القدر المستطاع (ابن الطوير، 1992، ص50)، لا بل وقد ضاعف من مقدار الجزية المفروضة على النصارى واليهود، وجعلها على الأغنياء ($\frac{1}{4}$) دينار ذهب، ومن دونهم (2 دينار) و(2قيراط)، وبقية عامتهم

$$\left(1 - \frac{1}{3} + \frac{1}{4}\right) + \text{درهم ورقاً (فضة)،}$$

واستخدم في ديوان الجوالي، أحد الدواوين الذي يشرف على ما يؤخذ من أهل الذمة من أموال الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة (ابن تغري بردي، 1992، ج5، ص253)، رجلاً يدعى القاضي المهذب بن أبي البقا، وكان السبب وراء ذلك اعتماد الخليفة الحافظ لدين الله في ديوان التحقيق على الكاتب النصراني صنيعة الخلافة الأخرم النصراني، الذي استخدم بدوره اثني عشر كاتباً من أعيان النصارى خلال وزارة بهرام في أواخر سنة 530هـ / 1135م، ولم يعين في الديوان سوى كاتبان من المسلمين، وهما: القاضي ابن البواب، والمرتضى ابن الطرابلسي، الذين آل إليهما الإشراف على الديوان في عهد الوزير ابن ولخشي. (ابن المقفع، 2006، ج3، ص2، ص1295 - 1296) إلا أن سياسته تجاه النصارى لم تشمل أماكن ودور العبادة الخاصة بهم، إذ سمح لهم بتجديد كنائسهم، لا سيما كنيسة القديس (ماري جرجس)، الذي أصدر في حقها قراراً بعمارتها وإعادة بنائها، بعد أن تعرضت للهدم من قبل المسلمين خلال تسلّم ابن ولخشي للوزارة. (ابن المقفع، 2006، ج3، ص2، ص1299 - 1300).

ثالثاً: مع الأرمن:

لم يكن رضوان بن ولخشي على علاقة طيبة مع طائفة الأرمن في البلاد المصرية، التي بلغ عددها نحو ثلاثين ألف إنسان، حيث تسلطوا على المسلمين، وألقوا بهم الظلم والجور خلال وزارة بهرام الأرمني، لا بل خشي المسلمون على ذهاب الدين الإسلامي في مصر، واستبداله بالديانة النصرانية، بعد أن أكثر من السماح ببناء الكنائس والأديرة، وأصبح لكل رئيس في الأرمن كنيسة. (ابن الأثير، 2003، ج9، ص295؛ ابن ميسر، 1981، ص124؛ المقرزي، 1996، ج3، ص159) فمذ أن تولى ابن ولخشي ولاية عسقلان، قام بالتشديد والتضييق على جماعة من الأرمن، ومنعهم من دخول القاهرة، وأمرهم بالعودة إلى بلادهم، مما أغضب الوزير بهرام، الذي أقدم على عزله من عسقلان، وابعاده إلى ولاية الغربية. (ابن الطوير، 1992، ص45).

وعندما تسلّم رضوان الوزارة، استخدم في بداية الأمر سياسة

من جانب المسلمين، فشحروا بالأمن والطمأنينة بعد أن انتشر عدله، وعمرت البلاد لحسن سيرته، وجراته في إحقاق الحق ودحر الباطل، لا سيما بعد أن اقتفى أثر الوزير السابق ابن الأفضل في الاستحواذ على السلطة في الدولة الفاطمية فعمل على تفويض دعائم الحكم الفاطمي وأطاح بالخليفة الحافظ لدين الله، الذي سبق أن أدخل السجن في عهد الوزير ابن الأفضل، فحكم رضوان البلاد المصرية وسير شؤونها بصفة أقرب إلى الدكتاتورية، دون أن يحاسبه أحد لا من حيث النظرية ولا من حيث الممارسة والتطبيق. (دفترى، 2012، ص429)

ثانياً: مع أهل الذمة (النصارى واليهود):

بعد أن وصل رضوان إلى منصب الوزارة، أجرى سلسلة من الإجراءات الداخلية، طالت جميع سكان القاهرة من جميع الأطياف الدينية، حيث أوقع بالنصارى، وعمل على إذلالهم ليكسب رضا الأهالي من المسلمين، فشكروه على ما فعل (المقرزي، 1998، ج2، ص46)، وقد بلغه أن الأخرم النصراني (ت 542هـ / 1147م) قد تعمد في إيذاء المسلمين، وتسلط عليهم بعد أن وصل إلى ديوان النظر، وهو من أجل الدواوين التي تنتظر في أموال الدولة (المقرزي، 1998، ج2، ص45)، وقد بذل الأخرم في كل يوم مبلغ ألف دينار خارجاً عن المؤن والغرامات، مما أغضبه فأمر بعزله، وأوكل أمر الديوان إلى رجل يقال له القاضي المرتضى أبو عبدالله محمد بن الحسين الطرابلسي المعروف بالمتك (ت 549هـ/1154م)، فقام بأمر الديوان دون ضمان (ابن الطوير، 1992، ص149؛ المقرزي، 1998، ج3، ص165).

وأنشأ ابن الصيرفي (ت 542هـ / 1147م) سجلاً خاصاً في ديوان الإنشاء ألزم فيه النصارى بعدم التشبه بالمسلمين في بعض الأمور الشخصية، لا سيما في ارتداء الملابس، وركوب البغال والخيول (سلام، 1982، ص211)، حيث منعهم من إرخاء الذوائب وركوب البغال وعدم لبس الطيلسان، كما ألزمهم بشد الزنابير المخالفة لألوان ثيابهم التي يرتدونها، ويشير ابن الطوير إلى أن رضوان: "حضر جوازهم على معابد المسلمين ركبناً، فما روئي في أيامه يهودي ولا نصراني يجوز على الجامع ركبناً، وإذا اضطر إلى الجواز نزل وقاد دابته" (ابن الطوير، 1992، ص49)، كما وأمرهم بتسليم أموال الجزية وهم في أسفل المصاطب، وحرّمهم من التلقب بالألقاب والكنى، مثل: أبي الحسن وأبي الحسين وأبي طاهر. (ابن الطوير، 1992، ص49)

وأصدر رضوان كذلك قراراً بمنع أهل الذمة من تبييض قبورهم انكاساً لهم في جميع الأماكن، لتبقى مسودة الظواهر كما

ص44 - 47؛ ابن الأثير، 2003، ج9، ص296؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص156، 159، 161).

وقد أغضبت هذه التصرفات الوزير ابن ولخشي، وما كان قدومه على رأس الأجناد من ولاية الغربية باتجاه القاهرة، إلا بسبب ما وصل إليه بهرام، وأهل ملته من الأرمن، وغيرهم من طوائف النصارى، من مكانة مرموقة في إدارة الدولة الفاطمية، وبدعم من الخليفة الحافظ لدين الله، (المقرئزي، 1991، ج2، ص514؛ ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، 1289) وخاصة طائفة الأرمن التي يتزعمها بهرام، فأصبح أكثر رؤساء الدواوين من النصارى، كما أسند ولاية قوص إلى أخيه الباساك، وهي من أكبر الولايات المصرية، فاستقروا به، وتجاوزوا الحدود في إيذاء المسلمين، ومصادرة أموالهم، والإستيلاء على ممتلكاتهم. (ابن الطوير، 1992، ص79 - 80؛ ابن ميسر، 1981، ص124؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص159، 165).

وبانتهاء عهد بهرام في الدولة الفاطمية لم يبق لأهل ملته من بطاركة ومدنيين أي شأن، ولم يعد لهم الكلمة في الدولة الفاطمية. (الدوادري، 1961، ج6، ص335؛ أبو المكارم، 1984، ص6-7، دائرة المعارف، 1933، مج7، ص258) إذ تم طوي إحدى مراحل تاريخ الدولة الفاطمية، وهي المرحلة التي سيطر فيها الأرمن على شؤون الحكم، حيث بدأت ببدر الدين الجمالي، واستمرت مع الأفضل شاهنشاه، وأبي الفتح يانس، الذي خافه الخليفة الحافظ بسبب قوة هيئته وكثر شره، فأمر بموته، لتنتهي هذه المرحلة بعزل بهرام سنة 531هـ/ 1136م، (ابن ميسر، 1981، ص117-118؛ الروحي، 2009، ص339؛ المقرئزي، 1991، ج2، ص516؛ سيد، 2007، ص197) وتكرست بوفاته سنة 535هـ/ 1140م. (المقرئزي، 1991، ج2، ص516؛ سيد، 2007، ص197)

أقدم الوزير رضوان على القيام بسلسلة من الإصلاحات، بدأها في الجانب الإداري، وأول ما بدأ به، عزل النظار والمشرفين النصارى من دواوين الدولة، وعدم استخدامهم فيها البتة، وعلى رأسهم صنيعة الخلافة الأخرم النصراني من ديوان القصر. (ابن ميسر، 1981، ص128-129؛ ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1294، 1347)، ومنهم من ترك الخدمة في الدواوين بمحض إرادته، وفضل الخروج منها، وعدم العمل فيها خلال وزارة ابن ولخشي، مثل أبو اليمين ابن العميد، الذي لزم الخدمة في كنيسة القديس أبو جورج في دير الطين، الذي يقع في ظاهر مصر من الجانب الشرقي. (ابن دقماق، 1893، ق1، ص107-108) ولكن بعد انتهاء عهد رضوان في الوزارة، أعاد الخليفة الحافظ لدين الله أعيان النصارى الذين عزلهم ابن ولخشي من وظائفهم، فسلم ديوان القصر إلى

الود في التعامل مع زعيم الطائفة الأرمنية، من خلال كتاب الأمان الذي بعث به إلى الوزير المخلوع بهرام، أثناء إقامته في الصعيد، واستقر الأمر بين الطرفين على بقاء الأخير في مكان إقامته، وتسريح الأجناد الذين رافقوه أثناء هروبه من القاهرة، وكان عهد الأمان قد بعث به ابن ولخشي مع أخيه ناصر الدين الأوحدي إبراهيم الذي سيره على رأس مجموعة من الأجناد نحو بلاد الصعيد، ويذكر أن إبراهيم كان أكثر هدوءاً من أخيه رضوان، إذ تعامل مع بهرام واتباعه من الأرمن بكل ود ولطافة، عند وصوله إلى الأديرة البيض، (ابن ميسر، 1981، ص126؛ ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1293) مكان إقامة بهرام وأهله، وهناك أقرهم على اقتطاعاتهم في منطقة الصعيد، بينما ترك قسم آخر من الأرمن العمل العسكري، واتجهوا نحو العمل في الزراعة في مناطق سما لوط، إحدى القرى في صعيد مصر، غرب نهر النيل من جهة الأشمونين (الحموي، 1977، مج3، ص251) وإيوان، قرية في الصعيد الأدنى، (الحموي، 1977، مج1، ص80) ثم أفلونس، قرية غرب نهر النيل من أعمال الصعيد (الحموي، 1977، مج4، ج2، ص392)، بالإضافة إلى البرجين من أعمال الجيزة، وقرية أخرى من أعمال المحلة. (ابن الطوير، 1992، ص48؛ النويري، 2004، ج28، ص197؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص161 - 162) وقسم آخر من الأرمن الذين تم تسريحهم من الخدمة العسكرية، عاد برفقة إبراهيم بن ولخشي إلى القاهرة، حيث صدرت الأوامر في حقهم من قبل الوزير رضوان، بمصادرة أموالهم، والتشديد عليهم بالطلب، ثم أمر بقتلهم بالسيف. (ابن ميسر، 1981، ص129؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص165) وقيل أن بهرام عند هروبه من القاهرة، قد نزل في دير الأب شنودة في إخميم على شاطئ نهر النيل في بلاد الصعيد، (الحموي، 1977، مج1، ص123)، ومكث هناك فترة من الزمن، ترهبين خلالها، ثم تم استدعائه من قبل الخليفة الحافظ لدين الله إلى القاهرة. (ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1303؛ أبو المكارم، 1984، ج2، ص152، 156).

سياسة رضوان الإدارية والعسكرية والمالية:

حصل ابن ولخشي على منصب الوزارة الفاطمية في آخر ربيع الآخر من سنة 531هـ/ 1137م، والمسلمون متضايقون بسبب تصرفات الوزير بهرام، وتحيزه لأهل مذهبه، وهو الأمر النهائي في دولة الخليفة الحافظ لدين الله، والنصارى في عهده يقبضون على دواوين الدولة، فمنهم: النظار والمشرفين والمفتشين في أنحاء البلاد المصرية. (ابن الطوير، 1992،

أعمال ابن ولخشي العمرانية والعلمية:

أمر الوزير ابن ولخشي بتشييد المدرسة المعروفة به في مدينة الاسكندرية سنة (532هـ / 1138م)، واستدعى الفقيه ابا طاهر إسماعيل بن مكى بن عون (ت 581هـ / 1188م)، شيخ المذهب المالكي، وأسند إليه التدريس في المدرسة، (ابن الطوير، 1992، ص52؛ ابن ميسر، 1981، ص130؛ ابن العماد الحنبلي، 1986، مج6، ص441) وكان السبب وراء اختياره الاسكندرية بدلا من القاهرة، كمكان لإنشاء المدرسة، في أن مدينة القاهرة هي عاصمة الفاطميين، ومركزاً للنشاط الشيعي الإسماعيلي آنذاك، كما أن أهالي الاسكندرية سنيين المذهب، ولذا اختارها ابن ولخشي لتكون القاعدة الأولى في محاربة المذهب الشيعي الفاطمي، وحتى يضع اللبنة الأولى في انطلاقة المذهب السني في مواجهة اتساع النفوذ الذي في البلاد المصرية، والمدعوم من قبل الخلفاء الفاطميين. (سيد، 2007، ص201؛ عطا الله، د.ت، ص187).

وقد استخدم ابن ولخشي ذكاه في تسميتها بالمدرسة الحافظية نسبة للخليفة الحافظ لدين الله، حتى لا تكون مستهدفة من قبل النظام الحاكم، وقد عرفت أيضاً بالمدرسة العوفية نسبة لمدرسها الفقيه ابن عوف. (ابن فرحون، 1970، ص346؛ السيوطي، 1967، ج1، ص452 - 453) و صدر سجل عن الحافظ لدين الله بإنشاء هذه المدرسة، وقد جاء فيه: "أن أمير المؤمنين لما رأى أن ثغر الاسكندرية يشتمل على القراء والفقهاء، وأن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه.... خرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر مناً عليهم وإنعاماً، ومستقراً لهم ومقاماً... فجدد السيد الأجل الأفضل أدام الله قدرته، الرغبة إلى أمير المؤمنين في أن يكون ما ينصرف إلى مؤنة كل منهم والقيام بأوده وإعانتته على ما هو بسبيله وبصدده: من عين وغلة مطلقاً من ديوانه واستقرت التقدمة في هذه المدرسة على أيامها لك أيها الفقيه أبو الطاهر" (القلقشندي، 1916، ج10، ص458-459؛ المناوي، 1970، ص107-108؛ الشيال، 1965، ص122-123).

وكان يدرّس في المدرسة الفقه وعلوم الدين السنية، فأصبحت خلال (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) من أشهر المدارس، بحيث وصلت شهرتها إلى أرجاء العالم الإسلامي كافة. (الشيال، 1965، ص123) ويبدو أن هذه الشهرة عائدة إلى كونها أول مدرسة سنية المذهب، ظهرت في مصر خلال الحكم الفاطمي، تعلم صبيانها وفقاً للمذهب السني، وارتبطت شهرتها أيضاً بأساتذتها من آل عوف، إحدى العائلات الكبيرة في تاريخ مدينة

الأخرم الذي قام بدوره بتعيين من أهل ملته، فأداروا ديوان المجلس، الذي يعد أصل الدواوين، ويشرف صاحبه على الاقطاعات في الدولة (المقريزي، 1998، ج2، ص138)، بالإضافة إلى تعيينهم في الوظائف الخاصة بديوان التحقيق. (ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1348).

وفي الجانب العسكري، وحرصاً من رضوان على مقارعة الإفرنج المتواجدين في بلاد الشام منذ استيلائهم على بيت المقدس سنة 492هـ / 1099م، قام باستحداث ديوان الجهاد سنة 531هـ/1137م، وأمر بصناعة السفن، وتقوية مناطق الثغور، وأصدر أمراً بإعمار مدينة عسقلان، ووفر لها العدد والآلات الحربية، وأبعد من ذلك فقد قرر رضوان المضي إلى بلاد الشام سنة 531هـ / 1137م، لغزو الإفرنج، وأظهر من الاعتناء بذلك ما لا يوصف، ولولا منعه من قبل الخليفة الحافظ لدين والتأمر مع وزيره المخلوع بهرام الأرمني، لانطلق ابن ولخشي والأجناد إلى غزو الإفرنج في بلاد الشام (ابن ميسر، 1981، ص129؛ المقريزي، 1996، ج3، ص163 - 164).

أما في الجانب المالي، فقد تعرضت الدولة الفاطمية إلى أزمة مالية في عهد الخليفة الحافظ، وكان سببها تلك المجاعة التي ألمت بالدولة سنة 532هـ / 1138م، نتيجة نقص الماء في نهر النيل، وقد واجه الخليفة الفاطمي هذه الأزمة بإصدار الأوامر بفتح مخازن ومستودعات القمح، وبيعها للناس بأسعار معتدلة، إلا أن الوزير رضوان، قد قابل هذا الإجراء بالرفض التام، وامتنع عن الإمضاء على ذلك، وهذا يفسر عدم رضا الوزير ابن ولخشي عن وجود الحافظ لدين الله في منصب الخلافة، والسعي لاحقاً نحو عزله، ولم يسلم أمراء دولته كذلك من شتائم ابن ولخشي، إذ أخذ يوجه الإهانات تلوى الأخرى إلى حاشية الخليفة، وكانت هذه الأزمة قد تسببت في ارتفاع الأسعار في السنة التي تلتها أيضاً، حيث بلغ سعر الأردب الواحد والذي يساوي 69.6 كغم، (هننتس، 1970، ص60) من القمح نحو 3 دنانير، ورطل الخبز بدرهم. (المقريزي، 1996، ج3، ص165؛ ابن المقفع، 2006، ج3، مج2، ص1297-1298).

ويذكر أن رضوان قد قام بإسقاط الضرائب المكوسية في البلاد المصرية، وعاقب كل من تصدى له، الأمر الذي جعل الخليفة الحافظ لدين الله يسعى إلى خلع من منصبه بسبب سياسته المالية في تقليل العوائد من ضرائب المكوس، وإلغائه لمصدر مهم من مصادر دخل الخليفة الفاطمي (ابن خلدون، 1999، مج7، ص154؛ دائرة المعارف، 1933، مج7، ص259).

والخشى لم يكن يعترف بشرعية الخليفة الحافظ، كونه وزيراً سني المذهب، حيث عزم على خلع من منصب الخلافة، قائلاً في هذا الشأن: "ما هو خليفة ولا إمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح"، (ابن الطوير، 1992، ص52؛ سيّد، 2007، ص200) فالخليفة الحافظ في نظر الوزير رضوان ما هو الآسوى وصياً على العرش، وأنه قام بطريقة ما، من تدبير أمر إخفاء أبي القاسم الطيب ابن الخليفة الحاكم بأمر الله، حتى يتسنى له تثبيت أقدامه في حكم الدولة الفاطمية. (دفترى، 2012، ص429) وقد استدعى رضوان عدداً من الفقهاء، لإصدار الفتاوى في خلع من منصبه، نذكر منهم على سبيل المثال: الفقيه أبو طاهر بن عوف السني المالكي، الذي أجابه بأن الخلع لا يجوز إلا من خلال توفر عدة شروط تثبت شرعاً. (ابن الطوير، 1992، ص52)، أما الفقيه ابن أبي كامل الشيعي الإمامي، فقد ردّ عليه بقوله: "السلطان أبقاه الله يحملني على أن أتكلم على غير مذهبي في الإمامة، إن الإمامية لا يعتقدون حق الخلافة في بني إسماعيل بن جعفر لموته في حياة أبيه، وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته". (ابن الطوير، 1992، ص52) أما داعي الدعاة الفاطمي أبو طاهر إسماعيل بن سلامة، فقد رفض مسألة الخلع رفضاً باتاً، وأعلن تأييده للخليفة الحافظ لدين الله، حيث قال: "أنا داعي وموئلي لهم، وما يصح لي خلعه فإني أصير فيما مضى كأني أدعو لغير مستحق، فأكون قد كذبت نفسي، فلا اقبل الآن وأستخصم بذلك، ولا يؤثر قولتي فيما تريدون، ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى تأتي به" (ابن الطوير، 1992، ص52).

فما كان من رضوان إلا أن قابله بالسب والشتم، وكانت الأخبار قد وصلت إلى مسامع الخليفة الحافظ لدين الله، بما كان يدور في المجلس الذي عقده رضوان حول مسألة خلع الحافظ من الخلافة. (ابن الطوير، 1992، ص52) ويفهم مما سبق، ومن خلال جمع الوزير رضوان، وإحضاره للعلماء من أهل السنة والشيعية والإسماعيلية والإمامية، ومن ثم مفاوضاتهم في أمر الخليفة الحافظ، وخلعه من الحكم، واستخلاف شخص آخر، أن المجلس المصغّر، واللجنة التي كلفها رضوان بخلع الحافظ لدين الله من الخلافة لم تكن آرائها لترضي غرور الوزير ابن ولخشي، وذلك بعد أن رفضوا تأييده في هذه المسألة، الأمر الذي دفع الوزير إلى القبض على مجموعة من رجالات الخليفة، وعلى رأسهم أبو المعالي بن قادوس (ت551هـ / 1156م)، وابن شيبان المنجم، ورئيس الطائفة اليهودية، وكان مصيرهم في نهاية الأمر الموت في سنة 533هـ / 1139م (المقريزي، 1996، ج3، ص168).

و من أسباب الخلاف أيضاً، سياسة التشدد من قبل ابن

الاسكندرية، حيث تتمتع بالثروة والجاه والمكانة الاجتماعية، إلى جانب مركزهم العلمي والثقافي لا في مصر فحسب، وإنما في كافة أرجاء العالم الإسلامي. (ابن فرحون، 1970، ص346؛ الشيال، 1965، ص121؛ عطا الله، د.ت، ص187).

إن بناء مثل هذا الصرح العلمي، لتأكيد على حرص واهتمام الوزير رضوان في دعم الحركة العلمية، والعمل على نشر التعليم بين أبناء المسلمين السنيين من خلال تشييد المدارس، وربما كانت لديه النية الأكيدة في تعزيز التعليم على المذهب السني، خاصة أن المذهب الشيعي الإسماعيلي قد تغلغل كثيراً في المدارس المصرية بسبب دعم الخلفاء الفاطميين، فوجدها ابن ولخشي فرصة في إنعاش الحركة العلمية والتعليمية على المذهب السني، حيث اقتدى به من بعد سنوات عديدة، صلاح الدين بن نجم الدين أيوب، ليعلن الحرب هو الآخر على المذهب الشيعي، وانتزاعه من مناهج التعليم، وذلك من خلال إكمال مسيرة الوزير رضوان بإنشاء العديد من المدارس في مدينة القاهرة، وسائر المناطق في البلاد المصرية ابتداءً من سنة 566هـ / 1170م، كان منها المدرسة الناصرية التي شيدها لتدريس الطلاب على المذهب الشافعي (ابن واصل، 1953، ج1، ص197؛ المقريزي، 1998، ج2، ص811)، كما ولا يفوتنا الإشارة إلى أن صلاح الدين قد تتلمذ على يد الفقيه أبو طاهر بن عوف، وسمع منه موطأ مالك سنة 577هـ / م (أبو شامة، 2002، ج3، ص59).

وبالإجمال فإن السياسة التي اتبعها رضوان بن ولخشي خلال توليه منصب الوزارة في الدولة الفاطمية، قد لاقت ارتياحاً بعض الشيء لدى عامة المسلمين، لاسيما السنة منهم، فشرع الناس بالطمأنينة، بعد أن انتشر عدله، وعمرت البلاد، لحسن سيرته وقوة نفسه، تزايد شجاعته (أبو شامة، 2002، ج2، ص117، 129؛ ابن واصل، 1953، ج1، ص200).

الخلاف بين الحافظ لدين الله والوزير ابن ولخشي:

ساعت الأمور بين الخليفة الفاطمي ووزيره رضوان، وذلك لعدة أسباب، منها: تصميم رضوان على خلع الحافظ لدين الله من منصبه، والقدح في مذهبه كون الوزير سني المذهب، (المقريزي، 1996، ج3، ص165) فإن ما اتصف به رضوان هي الخفة والطيش، وعدم إدراكه لعواقب بعض الأمور، من خلال الغوص العميق في بعض المسائل التي تخص النظام الحاكم، وسلطاته، يقول المقريزي في هذا الشأن: "إلا أن رضوان كان مع حسن عبارته وغازة أدبه طائش الفعل قليل الثبات، لا يحسن التدبير، ولا يتأني له سياسة الأمور لعجلته وجرأته." (المقريزي، 1996، ج3، ص184) فلا شك أن ابن

423؛ ابن منقذ، 2003، ص90؛ الدواداري، 1961، ج6، ص527؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص169 - 172)، وهناك قرر رضوان الاتصال بالأتابك عماد الدين زنكي بن أفسنقر (ت541هـ / 1146م)، إلا أن والي صرخد أرسل إليه أسامة بن مرشد بن منقذ (ت584هـ / 1188م) رسولا ليقتعه بالبقاء في صرخد، وذلك بسبب الخوف من إتحاد رضوان وأتابك زنكي، حيث قال: "هذا الرجل (رضوان) إن إنضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير". (ابن منقذ، 2003، ص90).

استغل والي صرخد حالة الضعف التي يمر بها الوزير رضوان، لا سيما بعد انهيار سلطاته الواسعة في البلاد المصرية بسبب تغير الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله عليه، ونجح كمشتكين في الحيلولة دون وصول رضوان إلى الإتفاق مع الزنكيين، ولكن لم يطل بقاء رضوان في تلك البلاد كثيراً، إذ قرر العودة إلى مصر في المحرم من سنة 534هـ / 1139م، ومعه من الأجناد ما تكفي لمحاربة الفاطميين (ابن ميسر، 1981، ص132؛ ابن خلدون، 1999، مج7، ص154)، وعند باب الفتوح في حارة بهاء الدين، وبالقرب من الجامع الحاكمي (ابن ميسر، 1981، ص132؛ المقرئزي، 1998، ج5، ص101؛ مبارك، 1888، ج1، ص17) التقى الطرفان في حرب قصيرة الأمد، هزم على إثرها رضوان بمن معه من الأجناد، ومضى هارباً باتجاه بلاد الصعيد. (ابن القلانسي، 1983، ص423؛ ابن منقذ، 2003، ص92؛ ظافر الأزدي، 1999، ج1، ص246؛ المقرئزي، 1996، ج3، ص173) ويذكر ابن ميسر أن الخليفة الحافظ لدين الله أرسل ابن مصال إلى الصعيد، حيث التقى بابن ولخشي، وسلّمه كتاب الأمان، ومن ثم عاد به إلى القاهرة، فكان اعتقاله في القصر الفاطمي، (ابن ميسر، 1981، ص132) بينما يشير ابن المقفع إلى أن رضوان عاد ثانية إلى بلاد الشام (ابن المقفع، 2006، ج3، ص4، مج4، ص130)، وهناك التقى بنجم الدين ابو الفتح سليم محمد بن مصال (ت544هـ / 1150م) وزير الخليفة الظافر فيما بعد (الصفدي، 2001، ج15، ص210 - 211)، وسفيراً للخليفة الحافظ لدين الله، فأعطاه عهد الخليفة الفاطمي بالأمان، وأقنعه بالعودة إلى القاهرة، فعاد وإلى جانبه أفراد عائلته (ابن خلدون، 1999، مج7، ص154)، وعندما وصلها، أحضر إلى القصر، حيث تم اعتقاله في الرابع من شهر ربيع الآخر سنة 534هـ / 1139م، في إحدى قاعات القصر الفاطمي الخاص بالخليفة الحافظ لدين الله (ابن القلانسي، 1983، ص424).

ويذكر ابن القلانسي أن السبب وراء ضعف ابن ولخشي عن مقارعة الأجناد الفاطمية، تلك الخيانة التي افتعلها من

ولخشي في مجابهة المد الشيعي في البلاد المصرية الذي تركزت جهوده أخيراً في بنائه للمدرسة العوفية في الإسكندرية للتدريس على المذهب السني. (ابن الطوير، 1992، ص52؛ سيد، 2007، ص201)، وكذلك التضييق على الفاطميين في النواحي المالية من خلال إلغائه للضرائب العائدة من المكوس، (ابن خلدون، 1999، مج7 ص154) وازداد الخلاف بينهما بعد أن أقدم الحافظ لدين الله على الاتصال بالوزير المخلوع بهرام في شهر رمضان من سنة 533هـ / 1138م، واستدعاه للقوم إلى القاهرة (ابن ميسر، 1981، ص130)، ومن ثم تكريمه من قبل الخليفة، وإسكانه داخل القصور الفاطمية، (ابن الأثير، 2003، ج9، ص296؛ ابن الطوير، 1992، ص48، النويري، 2004، ج28، ص198)، من أجل الاعتماد عليه في إدارة شؤون الدولة، والاستغناء عن الوزير ابن ولخشي، حيث خاطبه الخليفة عند قدمه، قائلاً: "ما أرى لك أن تنزل في مكان وحدك فإنك لا تأمن المتعنتين، ولا تأمن عليك رضوان، والأصلح أن تكون عندنا في بعض منازل القصر، وقد علمنا ما فعلته من ترك قتل أهل قوص وتحريقها، فما نجزيك عن ذلك إلا بخير". (ابن الطوير، 1992، ص48) وكان الخليفة كثيراً، يستشير في أمور الدولة، ويأخذ برأيه سراً دون علم الوزير بذلك، (المقرئزي، 1996، ج3، ص168) الأمر الذي أغضب رضوان، فأظهر استياءه من التصرف الذي أقدم الحافظ لدين الله على فعله، وقد تفاقم الأمر بينهما، خاصة بعد أن رفض الخليفة الفاطمي طلب الوزير رضوان في السكن داخل القصور الفاطمية أسوةً بهرام، وكان الحافظ لدين الله قد قام باستنهاض الأجناد من جانبه، وعلى رأسهم علي بن السلار ضد الوزير رضوان، (ابن ميسر، 1981، ص130؛ المناوي، 1970، ص280)، وجرت بين الطرفين معارك عديدة في مدينة القاهرة في الخامس عشر من شهر شوال لسنة 533هـ / 1139م، راح ضحيتها عدداً من الخيالة والمشاة في صفوف أجناد رضوان، فازداد الوضع سوءاً، خاصة بعد إدراكه لضعف قدرات أجناده القتالية، في مواجهة الأجناد الفاطمية (ابن ميسر، 1981، ص130-131)، حيث قرر اللجوء إلى عرب الدرماويين، إحدى القبائل العربية البدوية التي تنتمي إلى قبيلة طيء، وهم بنو عمرو بن عبد مناف، ويسكنون إلى الشرق من مدينة القاهرة، (المقرئزي، د.ت، ص3-4) وقد ساعده الدرماويين في الوصول إلى بلاد الشام، وإلى جانبه شاور (ت564هـ / 1168م)، إذ توجه رضوان نحو صرخد، إحدى أعمال دمشق والواقعة في سهل حوران، (الحموي، 1977، مج3، ص401) فاستقبله وإليها أمين الدولة كمشتكين (ت541هـ / 1146م)، وأكرم وفادته (ابن القلانسي، 1983، ص421،

ابن ميسر، 1981، ص138). وقيل أن من أقدم على قتله أحد أصحابه طمعاً في المال الذي قدمه الخليفة الحافظ مقابل قتل ابن ولخشي. (ابن منقذ، 2003، ص93؛ الأزدي، 1999، ج1، ص244؛ الذهبي، 1995، ج37، ص14)

وقد قتل إلى جانبه أيضاً أخيه إبراهيم، وتم إحضار رأسيهما إلى الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله، الذي أرسل رأس رضوان إلى زوجته قطر الندى، فلما وقع في حجرها قالت: "هكذا تكون الرجال فلم يكن في وقت رضوان أشجع منه" (النويري، 2004، ج29، ص199؛ للمزيد انظر: ابن منقذ، 2003، ص93؛ ابن الأثير، 2003، ج9، ص297؛ ابن ميسر، 1981، ص138؛ المقرئ، 1996، ج3، ص184)، بينما تقاسم أهالي مصر من السودان لحمه يأكلونه ليكونوا شجعاناً على حد قول ابن منقذ، وبذا يكون رضوان قد عاش نحو 53 سنة، ابتداءً فيها مشواره السياسي والإداري بتوليه لأول مرة الإدارة في ولاية الأعمال القوصية والأخميمية وعمره آنذاك لا يتجاوز التاسعة والثلاثون عاماً. (ابن منقذ، 2003، ص94؛ النويري، 2004، ص28، ص199) وقيل اتفق نزول المطر مع يوم مقتله وفي غير أوانه، فرثاه المهذب أبو محمد الحسن ابن الزبير (ت561هـ/1165م) قائلاً:

بنفسِي مَنْ أبكى السمواتِ ففدُهُ

بغيتِ ظنَّناهُ نَوَالَ يمينِهِ

فما استعيرتُ إلا أسيَّ وتأسفأ

والأ فماذا القطرُ في غير حينِهِ

(سبط ابن الجوزي، 2013، ج20، ص377).

وبعد عزل ابن ولخشي من منصب الوزارة، لم يوافق بهرام على طلب الخليفة الحافظ في العودة إليها، وقال له "أنا راهب ما انا جندي"، وبذا استمر الحافظ في حكم الدولة الفاطمية، وسار على نهج الحاكم بأمر الله في القيام بنفسه في إدارة شؤون الدولة والابتعاد عن تعيين الوزراء في الدولة وظلت الأمور كذلك حتى وفاته سنة 544هـ / 1150م (ابن ميسر، 1981، ص140؛ دفتر، 2012، ص426)، وإنما اعتمد على الكتاب مثل: أبو عبدالله محمد بن الإنصاري، والقاضي أبو الكرم محمد بن معصوم التنيسي (ت544هـ/1150م)، وصنيعة الخلافة الأخرم، فاستخدمهم لمساعدته في تصريف شؤون الدولة (الأزدي، 1999، ج1، ص244، 246؛ أبو الفداء، 1905، ج3، ص12؛ الفلقشندي، 1964، ج2، ص39؛ المقرئ، 1996، ج3، ص184، 189، ابن المقفع، 2006، ج3، ص1347).

انضم إلى جانبه من الأتراك عند العودة إلى مصر من بلاد الشام، حيث غدروا به، "ونهبوا ما كان معه من كراخ وسواد وتفرقوا عنه، فبقي وحيداً، ووقع أخيراً في أيدي الفاطميين أسيراً". (ابن القلانسي، 1983، ص427؛ ابن منقذ، 2003، ص92؛ المقرئ، 1996، ج3، ص173).

مقتل رضوان بن ولخشي:

يُذكر أن رضوان مكث في الاعتقال حتى الثالث والعشرين من شهر ذو القعدة سنة 542هـ / 1148م / 23 / 11 / 1148م، وبذا تكون المدة التي قضاها ابن ولخشي معتقلاً، قد بلغت نحو الثمان سنوات وسبع أشهر وتسعة عشر يوماً. (ابن القلانسي، 1983، ص424؛ ابن منقذ، 2003، ص92؛ الروحي، 2009، ص340؛ ابن المقفع، 2006، ج3، ص2، ص1302)، وخلال فترة اعتقاله في القصور، تمكن من الفرار سنة 542هـ/1149م، وذلك بعد إحداث ثقب في أحد جدران القاعة المعتقل في داخلها، وقد ساعده أتباعه على الفرار باتجاه الجيزة، وهناك تمكن من جمع عدداً من الأجناد والعربان والمغاربة، عاد بهم إلى القاهرة، وعند جامع ابن طولون التقت أجناده بالفاطميين وألحقت بهم الهزيمة، وتوجه بمن معه إلى القاهرة، فدخلها ونزل في الجامع الأحمر، إحدى الجوامع الكبيرة الذي بني من قبل الوزير المأمون البطائحي، (ابن ميسر، 1981، ص139؛ ابن خلدون، 1999، ج7، ص154؛ المقرئ، 1998، ج2، ص292)، ثم توجه إلى القصر، فرفض الخليفة استقباله (ابن القلانسي، 1983، ص460؛ ابن الأثير، 2003، ج9، ص297؛ ابن منقذ، 2003، ص92-93؛ ابن تغري بردي، 1992، ج5، ص272). وذكر ابن القلانسي أن رضوان أرسل إلى الحافظ يلتبس منه العودة إلى منصب الوزارة، وإخراج الأموال للأنفاق على الأجناد، فجاءه الجواب بالوعد بالموافقة، على طلبه على "سبيل المغالطة والمدافعة"، ودفع له مبلغ أربعين ألف دينار (ابن القلانسي، 1983، ص46 - 461؛ الذهبي، 1995، ج37، ص14؛ ابن خلدون، 1999، ج7، ص154)

شعر الخليفة الحافظ بخطر الوضع بسبب تزايد قوة ابن ولخشي، مما دفعه إلى إصدار الأوامر لاتباعه من مقدمي السودان بالهجوم على رضوان، وقتله في سنة 542هـ / 1149م، وقد رصد لهم الحافظ مبلغ عشرة آلاف دينار مكافأة لهم على التخلص من ابن ولخشي (ابن خلدون، 1999، ج7، ص155؛ المقرئ، 1996، ج3، ص184)، فأجمعوا عليه، وهم بالركوب والفرار، إلا أن أحدهم كان قد أجهز عليه بالسيف، فقتله، (سبط ابن الجوزي، 2013، ج2، ص377؛

النتائج:

على الإذلال من خلال التشدد في تقييدهم بارتداء نوعاً من الألبسة، والظهور خارج منازلهم، والمبالغة في مضاعفة مقدار الجزية المفروضة عليهم. واتباع كذلك أساليب قاسية في التعامل مع أبناء الطائفة الأرمنية وزعيمها بهرام، وذلك بسبب تسلطهم على المسلمين، وإلحاق الظلم والجور بهم، وتماديهم في الإنكار للدين الإسلامي بيناتهم العديد من الكنائس والأديرة.

5- واصل الوزير رضوان الإعداد العسكري من أجل محاربة الإفرنج في بلاد الشام، وأنشأ ديوان الجهاد لأجل ذلك الغرض.

6- تكريس الجهود من أجل محاربة المذهب الشيعي في البلاد المصرية، والتي تكلفت ببناء أول مدرسة يدرس فيها التعليم على المذهب السني المالكي من قبل الوزير رضوان بن ولخشي في مدينة الاسكندرية سنة 532هـ/1138م.

7- تخبط ابن ولخشي، واستعجاله في خلع الحافظ لدين الله من منصب الخلافة، والإطاحة ببعض أمراء دولته أدى إلى تغيير الخليفة الحافظ لدين الله من جهة رضوان، وانفصال الأجناد من حوله، مما مهد الطريق أمام الفاطميين لعزله من منصبه، وفراره وحيداً باتجاه البلاد الشامية، وقد تحقق ذلك في سنة 533هـ/1139م.

8- انسحاب الجند الأتراك الذين رافقوه من البلاد الشامية، تسبب في خسارته الحرب أمام الأجناد الفاطميين، وحبسه أخيراً في القصور الفاطمية، ومن ثم قتله في سنة 542هـ/1148م، بأمر من الخليفة الحافظ لدين الله.

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج الآتية:

1- لعب الصراع المسلح بين أبناء الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله، حول الحكم دوراً في تفسيح أركان الدولة وقواعدها، مما أعطى ذلك دافعاً قوياً للوزراء في فرض سيطرتهم على مقاليد الأمور في الدولة الفاطمية. فتحكم الوزراء بالخليفة الحافظ لدين الله خلال السنوات الأولى من حكمه، وعلى رأسهم ابن الأفضل، وذلك لضعف شخص الخليفة عند تسلّمه الحكم.

2- ارتقاء رضوان بن ولخشي عدة مناصب إدارية، أولها صاحب الباب، وآخرها والياً للغربية، جعله يصل إلى منصب حساس في الدولة الفاطمية مثل الوزارة، بعد أن جمع من الخبرة الكثير في الشؤون الإدارية والسياسية.

3- إن إساءة استخدام بهرام للسلطة، وهو في منصب الوزارة، قد أثار من حوله بعض الأمراء والعامّة من المسلمين في القاهرة وسائر البلاد المصرية، الأمر الذي قوى من موقف رضوان وبالتالي تمكنه من الإنقضاض على السلطة في الدولة الفاطمية، بعد نجاحه في تعبئة الجماهير والحشود الساخطة على بهرام وأنصاره من الأرمن، والوصول من خلالهم إلى منصب الوزارة.

4- اعتمد رضوان بعيد تسلّمه الوزارة على الكتاب المسلمين في إدارة شؤون الدولة من خلال تعيينهم في رئاسة الدواوين بعد عزل أربابها من النصارى والأرمن. حيث سلك ابن ولخشي مع أهل الذمة من النصارى واليهود سياسة قائمة

المصادر والمراجع

الحموي، ش. (1977م)، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، مج1، ص 80-123؛ مج2، ص 543؛ مج 3، ص 196-251؛ مج4، ص 392.

الخطيب، م. (1996م)، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص 312.

ابن خلدون، ع. (1999م)، تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة: دار الكتاب المصري، مج7، ص 150-154.

دفترتي، ف. (2012م)، الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ترجمة: سيف الدين القصير، بيروت: دار الساقي، ص 426-431.

ابن دقماق، إ. (1893م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، القاهرة: مكتبة بولاق، ق1، ص 107-108.

الدوادري، أ. (1961م)، كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة المضيئة في

ابن الأثير، أ. (2003م) الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية، ج9، ص 296-297.

الأزدي، ج. (1999م)، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: عصام هزايمة وآخرون، إريد: مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، ج1، ص 242-246.

الاسكندري، ع. (1920م)، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، القاهرة: مطبعة المعارف، ص 199.

ابن تغري بردي، ج. (1992م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، بيروت: دار الكتب العلمية، ج5، ص 253-272.

ابن حماد، م. (1981م)، أخبار ملوك بني عبيد وسيراتهم، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، الرياض: دار العلوم، ص 106-109.

- أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ج6، ص 335-527.
- الذهبي، ش.(1995م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ج 37، ص 14.
- الروحي، ع.(2009م)، بُلَغَةُ الظرفاء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: عماد أحمد هلال وآخرون، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص 339-340.
- سبط ابن الجوزي، ش.(2013)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: إبراهيم الزبيق، دمشق: دار الرسالة العالمية ج20، ص 154-454.
- سلطان، ع. (1985م)، المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة: دار المعارف، ص43
- سلام، س. (1982م)، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي، القاهرة: دار المعارف، ص55-211.
- سيد، أ.(2007م)، الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 195-264.
- السيوطي، ج.(1967م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ج1، ص 452-608.
- أبو شامة، ش.(2002م)، الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت: دار الكتب العلمية، ج2، ص 117-129.
- الشتتاي، أ.(1933م)، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة: دن، ص 257-259.
- الشيال، ج.(1965م)، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة: دار المعارف، ص 121-123.
- الصفدي، ص.(2001م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج15، ص 210-211.
- صموئيل، أ. (1984)، تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي، مصر: النعام للطباعة، ج2، ص 5-8.
- ابن الطوير، ع.(1992م)، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، بيروت: دار صادر، ص 38-149.
- عطا الله، خ.(د.ت)، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، القاهرة: دار الفكر العربي. ص 187.
- ابن العماد الحنبلي، ش.(1986م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ص 441.
- أبو الفداء، ع.(1905م)، المختصر في أخبار البشر، القاهرة: المطبعة الحسينية، ج3، ص 9-12.
- ابن فرحون، ب.(1970م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، بيروت: دار الكتب العلمية، ص 346.
- ابن القلانسي، ح.(1983م)، تاريخ دمشق(360 - 555هـ / 965-1160م)، تحقيق: سهيل زكار، دمشق: دار حسان، ص 242-460.
- القلقشندي، أ.(1964م)، مآثر الأناقة في معالم الخلافة؛ تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، بيروت: عالم الكتب، ج2، ص 27 - 250؛ ج10، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1916م، ص458-459.
- ماجد، ع. (1985م)، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، ج1، ص 83-92.
- مبارك، ع (1888م)، الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها، القاهرة: المطبعة الأميرية، ج1، ص 17.
- المقريزي، أ.(1992م)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج2، ص 145-516؛ ج3، ص418.
- المقريزي، أ.(1998م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة: مكتبة مدبولي، ج2، ص 45-233؛ ج3، ص 165.
- المقريزي، أ.(د.ت)، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب؛ تحقيق: عبدالمجيد عابدين، القاهرة: دار المعرفة، ص3-91.
- المقريزي، ت. (1996م)، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ج3، ص 137-184.
- ابن المقفع، س.(2006م)، تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، القاهرة: مكتبة مدبولي، ج3، ص 1274-1348.
- المنوي، م.(1970م)، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة: دار المعارف، ص 107-280.
- ابن منقذ، أ.(2003م)، الاعتبار (منكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية)، بيروت: المكتبة الإسلامي، ط3، ص90-94.
- ابن ميسر، م. (1981م)، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، القاهرة: المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، ص 113-140.
- النويري، ش.(2004م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، بيروت: دار الكتب العلمية، ج28، ص 197-199.
- هننس، ف. (1970م)، المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة: كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ص 60.
- ابن واصل، ج.(1953م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيو، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: دن، ج1، ص 200.

**The Minister in the Fatimi State: Radwaan Bin Walekhshi
(531-533 AH/1136-1138 AD)**

*AbdelMou'z Asri Bani Issa**

ABSTRACT

This study is an inquiry into a Sunni Muslim figure that became a minister in a predominantly Fatimi government during the Fatimi rule of Egypt. Radwaan bin Walkhshi is the first Sunni minister to have assumed a government position during the Fatimi reign of Egypt. This study sheds light on his life, his promotions to higher administrative positions, and the conditions that brought him to the rank of a minister. The study also dealt with his domestic policy with Muslims on the one hand, and the non-Muslims and the Arminis on the other. The study also focused on the administrative and financial measures enacted by the Sunni minister, which led to great architectural and scientific achievements. The study also tapped upon the dispute between this Sunni minister and Al Hafiz, the caliph, which made the situation tense and made the gap even wider between the two. This tension prompted the Fatimi caliph to oust the minister Radwaan in 533 AH/ 1137 AD. The caliph had detained the minister for eight years before he killed him in 542 AH/1147 AD.

Keywords: Radwaan, Al Hafiz le deen Allah, Fatemeh Country, Bahram, Diwaan.

* Faculty of Art, Yarmouk University, Jordan. Received on 17/5/2016 and Accepted for Publication on 25/7/2016.